سر الورود الذبلانة

جلست في مقعدي المريح على متن طائرة لوفتهانزا في طريقي من فرانكفورت إلى واشنطن بعد جولة محاضرات في عدة مدن ألمانية استغرقت نحو أسبوعين. سألني الشخص الذي كان يحتل المقعد المجاور حال جلوسي إلى جانبه عن بلدي، قائلا "من أين أنت؟"، وهذه عبارة يفتتح بها الأمريكيون عادة الحديث مع شخص غريب كلما شعروا برغبة في الحديث إليه، فكل أمريكي تقريبا ينحدر من أصل مختلف، حملته الأقدار إلى شواطئ أمريكا، فيما دفعه الإصرار على هجرة وطنه إلى التوطن في تلك البلاد الجميلة.

أخبرني رفيق السفر هذا، واسمه "ستيفن"، بعد أن تعارفنا بأنه كان يملك، وحتى اليوم الماضي، شركة هندسية في مدينة بالتيمور التي تبعد عن العاصمة واشنطن نحو 100 كم، وأنه قام في الأمس ببيع شركته لشركة ألمانية عملاقة بمبلغ كبير من المال، ما جعل الصفقة تعود عليه بأرباح لم يكن يتوقعها. إضافة إلى ذلك، طلبت الشركة الجديدة من السيد ستيفن أن يستمر في إدراة شركته القديمة مقابل مكافأة مالية كبيرة وامتيازات مغرية.

وهكذا، كما أخبرني رفيق السفر قائلا: إن رسالتي مستمرة، وإن التزامي بالعناية بموظفي الشركة الذين أخلصوا في عملهم لن ينقطع؛ كما إنني لن أحتاج إلى البحث عن عمل جديد، أو أن أتقاعد وأجلس في بيتي أنتظر الموت.

إلا ان الحديث سرعان ما انتقل إلى قضايا الشرق الأوسط، لأن رفيقي عرف حين قدمت نفسي له أنني فلسطيني. ولقد اكتشفت أنه كان على اطلاع جيد بتطورات القضية الفلسطينية، وما كان يدور من منطقة الخليج العربي من نشاطات اقتصادية وغير اقتصادية. لقد كان على علم بدور أبناء فلسطين في تنمية منطقة الخليج العربي، وتطوير نظم التعليم والإدارة المالية، وغير ذلك من أمور. ويعود السبب في معرفة ذلك الرجل إلى رحلاته المتكررة إلى البلاد العربية عامة والكويت والمملكة السعودية خاصة لتسويق خدمات شركته وفتح المزيد من الأسواق أمامها، والاعتناء بزبائيه؛ فخدمة الزبائن، كما قال لي، هي سر نجاح شركات الخدمات عامة. وضمن حديثنا قدمت له كتابا صغيرا، كان عبارة عن مشروع سلام يقوم على اساس اعتبار فلسطين وطنا مشتركا للعرب واليهود، تقام عليها دولتان منفصلتان من النواحي السياسية، ولكن متكاملتان من النواحي الاقتصادية والسكانية، وينتميان إلى سوق اقتصادي مشترك يضم الأردن، ونظام أمني إقليمي واحد.

وفي خضم الحديث عن هذا الكتاب وما جاء فيه من مقترحات، جلب انتباهي جلوس امرأة في مقعد الطائرة الكائن في الصف الموازي للصف الذي كنا نجلس فيه، يفصلنا عن بعضنا البعض الممر؛ إذ كنت أجلس في المقعد الملاصق لشباك الطائرة، فيما يجلس رفيقي في المقعد الملاصق لي، وفي الناحية الأخرى تجلس تلك المرأة. كانت تلك المرأة جميلة وأنيقة ما جعلها تبدو مديرة لمنظمة أو شركة سياحية صغيرة، أما سنها فكان في منتصف الثلاثينات.

إن ما جلب انتباهي واهتمامي بتلك المرأة هو اهتمامها بما كان يدور بيننا من نقاش وتبادل للآراء، حيث لاحظت أنها كانت تحاول أن تلتقط كل كلمة ننطق بها. وسرعان ما أثار فضولها فضولي كذلك، ما جعلني انتبع حركاتها وانفعالاتها بانتظام محاولا التعرف على سر اهتمامها الشديد بحديثنا. مع ذلك، كانت المرأة توزع اهتمامها بين الانصات لما نقول، والعناية الفائقة بباقة ازهار برية ذبلانة، كانت تحتضنها بحنان منقطع النظير محاولة إعادة الحياة لها بعد فوات الأوان. وهنا قررت أن أتحدث إلى تلك المرأة المثيرة، وأن أتعرف على هويتها وسر اهتمامها الفائق بأزهار التي كانت قد دخلت مرحلة الاحتضار.

نهضت من مقعدي بعد نصف ساعة تقريبا، سرت نحو مكان خدمة الركاب، طلبت من احدى المضيفات كأسا من الماء، وفي طريقي عائدا إلى مقعدي توقفت أمام تلك المرأة وسألتها عما إذا كانت ألمانية في طريقها لزيارة أمريكا، أو أنها أمريكية عائدة إلى الوطن بعد زيارة المانيا أو غيرها من الدول. لاحظت أنها كانت سعيدة بسؤالي، ما جعلها لا تتردد في الإجابة عنه، إذ قالت إنها أمريكية كانت في زيارة لهنغاريا، وأنها في طريق العودة إلى أمريكا، وأنها تشعر بالشوق لزوجها وأولادها ووالدها الذين ينتظرونها في مطار واشنطن. وحين سألتها عن سبب زيارتها لهنغاريا بالذات، قالت إنها تدير مؤسسة خيرية صغيرة تقوم بتأسيس معسكرات لشباب امريكا الراغبين في قضاء الصيف في ربوع أوروبا.

سألت تلك السيدة الجميلة بعد ذلك عن الورود الذبلانة التي كانت تحتضنها، وعما إذا كان لها حكاية أو سر خاص. تغير لون وجهها قليلا، لكنها لم تتردد في القول إن هذه زهرة هنغارية برية مشهورة، وأن والدها يحب تلك الزهرة كثيرا لأنها تذكره بطفولته في تلك البلاد الجميلة. وهنا أدركت في الحال أن والدها أمريكي من أصل هنغاري كان قد هاجر في طفولته إلى أمريكا، مما يعني أنه على الأغلب واحد من يهود أوروبا الذي شردتهم النازية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية.

وحتى يأخذ الحديث مسارا طبيعيا، قدمت نفسي لتلك الشابة، إذ ذكرت لها اسمي وعملي والمكان الذي أعيش فيه وكوني فلسطيني الأصل؛ وفي المقابل، فعلت هي نفس الشيء، قائلة أنا "كاترينا سويت

لانتوس، أسكن في مدينة صغيرة اسمها بو Bow في ولاية نيو هامبشير، وأن بو تقع في نصف الطريق بين مدينتي نيويورك وبوستطن تقريبا". أدركت على الفور أنها يهودية، وأنها لا بد وأن تكون على علاقة قرابة بعضو الكونجرس الأمريكي الصهيوني "توم لانتوس". كان لانتوس حينئذ أكثر أعضاء الكونجرس تأييدا لسياسات إسرائيل العنصرية، ودعما لها في داخل الكونجرس وخارجة.

ومع أن لانتوس كان يدعي بأنه يتعاطف مع المظلوم من شعوب العالم، ومن بينها شعبي العراق وسوريا، إلا أنه كان يبدي العداء لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويُنكر حقوق الشعب الفلسطيني. أما سبب ابداء التعاطف مع الشعبين العراقي والسوري، فكان يأتي ضمن حملة التشهير بنظام الحكم في البلدين لأنهما كانا، رغم سياسات الكبت والظلم، يقفان موقف المقاوم لأطماع إسرائيل وأمريكا، والداعم لحقوق الشعب الفلسطيني في وطنه.

سألت كاترينا عما إذا كانت ترتبط بصلة قرابة مع السيد توم لانتوس. أحابتني من دون تردد قائلة: "نعم، إنه والدي". وعندها أدركت سر اهتمامها بما كان يدور بيني وبين رفيق السفر السيد ستيفن من حوار، لانه كان نقاشاً يتعلق بقضية تعيشها مع والدها كجزء من حياتها اليومية، وربما تعيش عليها من خلال نشاطاتها "الخيرية" في أوروبا. سرح ذهني قليلا بعد سماع تلك الكلمات، ما جعلها تبادر إلى القول، إن كون "توم" والدي لا يعني أننا نتفق في مواقفنا من قضية فلسطين أو من غيرها من قضايا، لكنه رجل طيب ويحب الناس، يدافع عن حقوق المظلومين، ويتمسك بما يؤمن به من مبادئ.

كنت حتى تلك اللحظة اعتقد أن توم لانتوس يهودي من أصل لاتيني، أي من أصول تعود إلى أمريكا الجنوبية، لأن اسمه ولكنته ولون بشرته كانت كلها توحي بذلك. ولقد كان ذلك الانطباع الخاطئ أحد الأسباب التي جعلتني استغرب مواقفه العدائية من الشعب الفلسطيني وحقوقه. لكن لقائي مع كاترينا جعلني أعيد حساباتي، حيث وجدت أن لكل موقف يتخذه الإنسان سبب؛ ولكل علاقة حب وعداء يقيمها مع غيره من الناس سبب كذلك؛ وأن السبب الرئيسي لهذا وذاك هو الحاجة إلى البقاء، والحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى فضاء ينشط فيه، ويعيش منه وعليه.

مما لا شك فيه أن كل إنسان يحتاج إلى غذاء وماء وملابس ومكان يسكن فيه، ووطن يعيش في ربوعه كي يحافظ على بقائه ويعيش حياته. كما أن كل إنسان يحتاج إلى مجموعة من الناس تحتضنه وتُشعره بالراحة والطمأنينة، وتتيح له الفرصة كي يشارك في نشاطاتها، ويسهم في تشكيل مبادئها وتحديد أهدافها؛ فالانتماء إلى مجموعة بشرية يمثل بالنسبة لكل إنسان درعا يحميه من بعض الأخطار، وإطارا

يستعين به على تخطي بعض الصعاب التي تعترض طريقه في حياته وعمله وايمانه. إضافة إلى ذلك، إن كون الإنسان حيوانا اجتماعيا، يجعله بحاجة إلى فضاء يوفر له قدرا من الحرية يمكنه من إقامة علاقات اجتماعية، وعلاقات عمل مع غيره من الأفراد والجماعات، والسعي لضمان بقائه وشعوره بالانتماء. وهذه أمور تحتم على كل إنسان أن يظهر تمسكه بمبادئ قد لا تكون هي المبادئ التي يفضلها، وأن ينتمي لمجموعات بشرية قد لا يلتقي معها في كل ما تسعى إلى تحقيقه من أهداف، وأن يعيش في أماكن ويمارس نشاطات قد لا تتوافق كليا مع هواياته وما لديه من علم وخبرة وطموح.

مع ذلك، هناك من البشر من يظهر تمسكه بمبادئ لا يؤمن بها، وينتمي لمجموعات ومنظمات تسعى لتحقيق أهداف جماعية تتناقض مع قناعاته، ويعيش في أماكن تفرض عليه أن يكبت مشاعره ويتنازل عن الكثير أو القليل من حقوقه وأهدافه وطموحاته. وإذا كان الإنسان الأول يفعل ما يفعل من أجل توفير حاجته إلى البقاء والانتماء وفضاء، فإن الإنسان الثاني يفعل ما يفعل من أجل تعظيم مكاسبه على حساب غيره من البشر والمبادئ الإنسانية المشتركة.

أخبرتني كاترينا أن والدها كان صبيا عمره نحو 17 عاما حين قامت القوات الألمانية باجتياح هنغاريا واحتلال العاصمة بودابست في عام 1944 أثناء الحرب العالمية الثانية، وهذا تسبب في انقطاع والدها عن شبابه وسنوات نضوجه، وانقطاع ذكرياته القديمة مع واقع حياته الجديد. كما أخبرتني أن والدها هرب مع الكثير من يهود هنغاريا بمساعدة الدبلوماسي السويدي "راؤول وولنبيرج".

قام وولنبيرج موظفا في سفارة السويد في بودابست؛ وحين أدرك هول الجرائم التي ارتكبتها قوات النازية بحق الهيود والغجر وغيرهم من أقليات في أوروبا، قام بأصدار وثائق سفر سويدية جعلت حامليها رعايا سويديين، يتمتعون بحماية السويد. ولقد مكنت تلك الوثائق آلاف اليهود من السفر والهروب من وجه القوات النازية إلى أماكن آمنة في أوروبا أولا، ومنها قامت الأغلبية بالسفر إلى أماكن أخرى، كانت أمريكا وفلسطين من بينها.

لم أستطع أن أقاوم الرغبة، وربما الحاجة إلى سؤال كاترينا عن سبب عداء والدها السافر للفلسطينيين وحقوقهم المشروعة التي اعترفت بها كافة المنظمات الدولية. قالت كاترينا محاولة تجنب الإجابة بشكل مباشر، "إنني أؤيد حق الفلسطينيين في إقامة دولة لهم في الضفة وقطاع غزة". ثم أضافت قائلة، إنها "لا تناقش قضايا شائكة مثل القضية الفلسطينية مع والدها، وأنها تعيش مع زوجها وأولادها حياة هادئة بعيدا عن واشنطن. وهنا تذكرت لقاء جاء بالصدفة مع عضو الكونجرس اليهودي السابق "ستيفن

سولارز" الذي رفض حتى مجرد تبادل الحديث معي لكوني فلسطيني، علما بأنني كنت على قائمة المتحدثين في المؤتمر الذي جمعنا في ذلك اليوم. كان سولارز قبل وصوله إلى الكونجرس بائع سيارات مستعملة في ولاية فلوريدا، وهذه هي مهنة من لا مهنة له من الفاشلين في أمريكا، كما أن الدخل منها يعتمد على مهارة صاحبها في استخدام فنون التحايل وخداع الزبائن؛ لذلك لا تحظى هذه المهنة بتقدير المجتمع الأمريكي. لكن المال اليهودي، والانتماء إلى الحركة الصهيونية، والالتزام بالدفاع عن جرائم إسرائيل داخل أروقة الكونجرس وخارجه كان كفيلا بتحويل رجل ساقط كهذا إلى رجل ذا نفوذ كبير، ما جعل حكام بعض الدول التابعة لأمريكا تتحني لهذا الرجل الوضيع ولأمثاله من أعضاء الكونجرس.

بعد الحديث مع كاترينا عن والدها السيد توم لانتوس، كان لا بد من أن ينتقل الحديث إلى الأزهار البرية الذبلانة، تلك الأزهار التي كانت تحتضنها برق وحنان بالغ. ومن خلال الحديث اكتشفت أن تلك الأزهار، على الرغم من سوء حالتها الصحية، كانت هدية كاترينا لوالدها؛ هدية تذكره بطفولته وصباه وظروف هروبه من هنغاريا، ذلك الوطن الذي ولد فيه وأحبه وانقطع عنه بعد الهجرة إلى امريكا. وعندها أدركت أن كاترينا لم تكن تحمل معها بعض الأزهار البرية الذبلانه، وإنما ثروة من الذكريات لرجل عز عليه الانفصال عنها.

لم يكن بوسعي حينئذ السكوت طويلا، إذ انتابني شعور طاغي بالغربة، واحساس عميق بالحنين إلى الوطن. لذلك قلت لكاترينا، "أرجو ان تخبري والدك، حين تقدمين هذه الأزهار إليه، أنك قابلت على متن هذه الطائرة فلسطينيا له ذكريات طفولة عزيزة على قلبه تركها خلفه في فلسطين في عتمات الليالي... شواهد وزهور حُرم من مناجاتها على الرغم من إرادته، كما حُرم من الرجوع إليها وزيارتها كلما ضاقت به الحياة؛ وأن من قام بمصادرة طفولته وحرمه منها هم أولئك اليهود الذين يدافع عن جرائمهم كل صباح، ويسهم في انتهاك إنسانية ضحاياهم كلما تفوه بكلمة في الكونجرس".

بدا على وجه كاترينا الصدمة والاكتئاب حين سمعت هذه الكلمات، ما جعلها تدير وجهها بعيدا عني وتترك عيناها تسرح بعيدا في الفضاء، كأنها تحاول اكتشاف كوكب جديد تهرب إليه. وفيما كنت أنظر في عينيها الشاردتين شعرت بأن عقلها يقول دون أن ينطق لسانها، "كفي، لا بد وأن يتوقف الكلام عند هذا الحد". لذلك، أدرت وجهي عنها، وعدت إلى مقعدي في الطائرة، أغمضت عيني، ولم أفتحهما إلا حين أعلن قائد الطائرة أننا بدأنا الهبوط في طريقنا إلى مطار دالاس الواقع في ضواحي واشنطن.

وما أن توقف عجلات الطائرة على مدرج المطار، حتى وضعت كاترينا يدها على كتفي بخفة، وحين نظرت إليها، قالت والبسمة تعلو وجهها، "سعدت حقا بالتعرف إليك، أتمنى لك حظا سعيدا"، ثم ناولتني قصاصة من الورق كتبت عليها رقم تلفونها. وما أن وصلنا قاعة الوصول حتى كان الركاب قد توزعوا على عدة صفوف أمام شبابيك الجوازات، وبعد اجتياز ذلك المكان، وقف الركاب حول شريط الأمتعة. وبينما كنت أنتظر وصول حقيبتي، كانت عيناي تحوم حول المكان تبحث عن كاترينا، على أمل أن أراها وهي تقدم باقة الأزهار لوالدها. كنت أتحفز لرؤية رد فعله حين يلمس تلك الأزهار، وتعاوده ذكريات الطفولة والصبا على حين غرة.

لكن كاترينا قررت على ما يبدو أن تفاجأني، إذا جاءت من الخلف، وبسرعة خاطفة عانقتني وقبلتني قبلة حارة، واختف عن الأنظار. فكرت كثيرا في الاتصال بها، لكنني قررت في النهاية أنه لا فائدة ترجى من الاتصال، فأنا لا أريد شيئا منها، وأنه لا يمكن لها أن تقدم لقضيتي خدمة. كان اللقاء بكاترينا هو أحد الصدف التي تأتي على حين غرة، تحير العقل وتعلمه شيئا غاب عنه طويلا، تغرس شتلة ذكريات جديدة تثري الحياة، وتذهب في طريقها إلى عالم الغياب الذي لا نعرف عنه شيئا.

بعد أسابيع قليلة كنت على موعد للمشاركة في مؤتمر في مدينة فينا، العاصمة النمساوية، حول قضية فلسطين وكيفية التوصل لتسوية للصراع العربي الصهيوني. وبعد انتهاء أعمال المؤتمر، أصر صديقي الدكتور زياد أبو عمرو الذي كان حينئذ أستاذا في جامعة بير زيت، ومعه الصديقة الدكتورة "جوان هارت" الاستاذة في جامعة بروان على أن نقوم بزيارة مدينة بودابست، عاصمة هنغاريا. ومع رغبتي في زيارة بودابست، كنت أشعر بالارهاق من كثرة ما قمت به أثناء المؤتمر من أعمال، إذ كنت المشرف على إدارة المؤتمر، والمسؤول عن دعوة بعض المشاركين فيه. لذلك حاولت أن أقنع زياد وجوان بصعوبة القيام بتلك الرحلة وقصر الوقت، إذ لم يكن لدينا فيزا لدخول هنغاريا ولا سيارة، لكنني فشلت في اقناعهم؛ لذلك قلت لهم إذا استطعتم تدبر الأمر سأسافر معكم. وفي حوالى العاشرة من صباح اليوم التالي، اتصل زياد من وسط المدينة ليقول لي، لقد رتبنا الأمور مع السفارة واستأجرنا سيارة، ونحن في طريقنا إلى الفندق.

وما كدنا نجتاز الحدود النمساوية وندخل الحدود الهنغارية، وبينما كانت السيارة تسابق الريح مندفعة نحو بودابست، رأيت معالم الطريق تتغير بسرعة. لقد رأيت السهول تمتد أمامنا وقد اكتست حلة مزهرة جميلة؛ كانت زهرة هنغاريا البرية التي تعرفت عليها في حضن كاترينا في حالة حزن وذبول، تقف شامخة بكل جمالها ورونقها، تتمايل مع الريح حيث تميل، وتكسو السهول والتلال على جانبي الطريق بحلة زرقاء

بنفسجية رائعة. وبسرعة مدهشة عادت ذكريات فلسطين وطفولتي فيها، وتخيلت زهرة فلسطين الشعبية المحببة لقلوب الملايين، زهرة "الحنونة"، أي شقائق النعمان التي تغزو الساحل الفلسطيني وتلاله كل ربيع، وتلونها بلونها الأحمر البلوري الصافي. وهكذا أعادتني زهرة هنغاريا إلى زهرة فلسطين التي أعادتني إلى جدتي ومدرستي ومقبرة يازور التاريخية التي كنت أمر عليها كل صباح في طريقي من البيت إلى المدرسة الكائنة في الجامع ذي القباب السبعة. وهذا جعلني أتخيل وجوه العديد من أصدقاء الطفولة الذين لم أعد أتذكر أسماءهم، ولا أعرف مكان وجودهم، ولا ما فعل الدهر بهم.

حين رأيت زهرة هنغاريا، وتأملت في جمالها وهي تقف مرفوعة الرأس كزهرة فلسطين، تزهو بقوامها ولونها واعجاب عشاقها، أدركت سبب افتتان توم لانتوس بها، كما أدركت سر ذبولها على الرغم من عناية كاترينا الفائقة بها. فالوردة خلقت لتعيش على طبيعتها مع الطبيعة التي تولد فيها، ولذلك حين تنقطع صلتها بجذورها التي تغذيها وتزودها بروح الحياة، تذبل بهدوء ثم تموت وتفنى. الوردة في يد الإنسان وعلى صدره هي مخلوق جميل في طريقه إلى الفناء، إنها مجرد نبتة سرقوا منها الحياة ما يجعلها بلا أمل أو مستقبل. لكن الوردة تعيش في الذاكرة لتُذكر البعض منا بساعات الفرح، وتذكر آخرين بأيام الألم والحزن، وتجسد في ذاكرة الزمن الفرح والحزن معا.

الإنسان هو كالوردة تماما، لا يستطيع أن يعيش حياته كاملة برونقها وجماليها وعبقها، حُلوّها ومُرها، فرحها وحزنها، آمالها واحباطاتها إلا في ربوع الوطن، وبين الأهل والأصدقاء، قريبا من ذكريات الطفولة والصبا. وحين يبتعد الإنسان عن الوطن بسبب فقدان الوطن، أو الهجرة منه وهجرانه، يتحول إلى زهرة ذبلانة حزينة تفقد رونق الحياة ببطء، حتى وإن كانت الحياة في الوطن الجديد ذات طبيعة أكثر جمالا من طبيعة الوطن الأم.

الإنسان والوردة سيان، يفقد كل منهما روح الحياة ورونقها بعيدا عن الوطن، حتى وأن كانا يحظيان بعناية امرأة رائعة الجمال، وحنونة كحنان كاترينا سويت لانتوس.

د. محمد ربيع

www.yazour.com